دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	تحليل الخطاب وإشكالية نقل المفاهيم : رؤية مقترحة
المصدر:	مجلة النهضة
الناشر:	جامعة القاهرة - كلية الاقتصاد والعلوم السياسية
المؤلف الرئيسي:	صفار، محمد
المجلد/العدد:	مج 6, ع 4
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2005
الشهر:	أكتوبر
الصفحات:	99 - 110
رقم MD:	67295
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EcoLink
مواضيع:	معاني الألفاظ، الخطاب العربي، تحليل الخطاب، الثقافة العربية، البلاغة العربية، المفاهيم اللغوية، النظريات السياسية، الخطاب السياسي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/67295

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

رؤيــة فكــرية

تحليل الخطاب وإشكالية نقل المفاهيم : رؤية مقترحة

د . محمـد صفـار*

مقدمة:

ليس هناك صياغة أكثر وضوحاً وبساطة وإجمالاً لإشكالية نقل المفاهيم، التى تنطلق هذه الورقة منها سعياً لتقديم حل مقترح لها، من تلك الخاصة بمحمد أسد. ففى حين أن المفاهيم المنقولة تتسم بالمرونة والديناميكية فى بيئتها الأصلية، حيث تخلق حقيقة التغير المفاهيمى الراسخة فى ذهن المفكر الغربى وعياً بضرورة مراجعة وتعديل المفاهيم بشكل مستمر، تفقد تلك المفاهيم فى البيئة الناقلة مرونتها وديناميكيتها، إذ يتم تصنيم هذه المفاهيم بإضفاء سمات الإطلاق وعدم التغير بل والقداسة التى تجعلها متجاوزة لأى سياق تاريخى، ومن ثم تسهم فى المزيد من الجمود الفكرى الذى كان السعى لاكتساب المفاهيم الجديدة يهدف إلى إذابته (أسد ١٩٦١ : ١٨-١٩).

وتظهر أعراض إشكالية نقل المفاهيم بصورة لا تخطئها العين فى مفهوم وعمليات تحليل الخطاب، إذ لم يواكب اتساع نطاق استخدام المفهوم فى الدراسات العربية وذيوعه على الألسنة، عمليات استيعاب حقيقى لأصوله النظرية وإمكاناته التحليلية، أولتقنياته وإجراءاته بما يتلافى أوجه قصوره، أو حتى تعديل لبنائه ووحدات تحليله بما يلائم السياق الثقافى الناقل أو الحالة موضع الدراسة. بل تم تصنيم المفهوم وأُضفيت القداسة على إجراءاته وتقنياته بما جعله يفقد مرونته وديناميكيته، بل وحتى إمكاناته وطاقاته التحليلية – أو فلنقل فائض قيمته – بحيث صار عبئاً على الحالة موضع الدراسة وقيداً على من يحلل الخطاب.

لذا تسعى هذه الورقة إلى تقديم محاولة متواضعة لطريقة التعامل مع اقتراب تحليل الخطاب فى السياق الثقافى العربى – الاسلامى، بغرض الاستفادة من نقاط قوة هذا الاقتراب وتلافى أوجه قصوره،

* مدرس العلوم السياسية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، مصر.

وذلك استناداً إلى خبرة الباحث فى توظيف تحليل الخطاب على طريقة فوكو لدراسة "النظرية السياسية عند سيد قطب"[1].

وسوف تحاول الورقة لتحقيق هذا الغرض، التعرض لتعريف مفهوم الخطاب بوجه عام والاتجاهات السائدة فى تحليل الخطاب كإطار عام، ثم تتناول بالتفصيل عملية إعادة هيكلة مفهوم الخطاب عند فوكو لتحريره من جمود النقل واشكالات التصنيم فيصير ملائماً للسياق الثقافى الناقل ومن ثم يؤتى تحليل الخطاب ثماره المرتجاة عند التطبيق. وتجدر الإشارة إلى أن التعديلات فى مفهوم الخطاب عند فوكو التى سيتم التعرض لها فى هذه الرؤية المقترحة تمس الأطر العامة للخطاب وبنيته وأصوله وثوابته، استجابةً لطبيعة السياق الثقافى والتاريخى المغاير للبيئة الأصلية للمفهوم، أما التعديلات المتعلقة بإعادة تعريف عناصر ووحدات تحليل وميكانيزمات وتفصيلات تحليل الخطاب الفوكولى – استجابة لطبيعة الحالة موضع الدراسة ولاعتبارات الملاءمة المنهاجية – فهى أكثر تفصيلاً وتشعباً من أن يتسع المقام فى هذه الورقة لتناولها.

أولاً: التعريف بمفهوم الخطاب وأطواره واتجاهاته:

يشير لفظ الخطاب (Discourse) الذى ينحدر من الأصل اللاتينى (discursus) أو (discurrere) الذى يعنى الجرى باتجاهى الأمام والخلف، إلى المناقشة أو المحادثة أو الخطبة. كما أنه يدل على الشكل الذى تأخذه سلسلة من التعبيرات والأحكام، وكذلك الطريقة التى تأتى بها المعرفة للوجود، لذا يمكننا أن نتحدث عن خطاب علمى أو دينى أو شعرى. أيضاً يصف الخطاب تلك الممارسات المحكومة بمجموعة من القواعد التى ينشئها نظام أو نسق خاص من المقولات كشكل من أشكال المعرفة، مثل الطب وعلم النفس والأحياء (هوجلى ولوبكه ٢٠٠٠ : ١٥٣).

رغم أن مفهوم الخطاب نشأ فى مجالى اللغويات والسيموطيقا إلا أنه قفز للعديد من فروع ومجالات العلوم الإنسانية، إذ يُستخدم تحليل الخطاب فى الأنثربولوجيا والتاريخ وعلم الاجتماع والتحليل النفسى ودراسات ما بعد الكولونيالية والعلوم السياسية وتحليل السياسات العامة، مما جعل مفهوم الخطاب يشغل مكاناً محورياً تتزايد أهميته فى العلوم الاجتماعية والإنسانية المعاصرة. على أن الكم الغزير من الدراسات التى تستخدم مفهوم وتحليل الخطاب فى العلوم الاجتماعية المختلفة لم يؤد إلى صبغ المفهوم بلون ثابت واضح يميزه عن غيره من المفاهيم، بل على العكس من ذلك تماماً فقد جعلت تلك الدراسات مفهوم الخطاب كالحرباء يتلون بلون الخلفية التى يقف أمامها، إذ فرض كل حقل معرفى عند استخدامه للمفهوم مسلماته ومقولاته واشكالاته عليه، بحيث صار المفهوم يتسم بالنسبية والاختلاف الشديدين. فبينما يضيّق البعض مفهوم الخطاب ليقتصر على مجرد أساليب الكلام والمحادثة يوسعه البعض الآخر ليجعله مرادفاً للنظام الاجتماعى برمته، حيث يصير كل شئ خطاباً (هوارث ٢٠٠٠ : ٣-١).

---

[1] لمزيد من التفاصيل ، انظر :

Soffar , Mohamed 2004 , The Political theory of Sayyid Qutb : a genealogy of discourse, Berlin : Verlag Dr. Köster , 1st. ed.

ويرى دافيد هوارث أنه يمكن بوجه عام التمييز بين اتجاهات عدة فى تعريف الخطاب، أبرزها: ١- الاتجاه الوضعى: الذى يرى فى الخطاب مجرد أطر معرفية، بمعنى "الجهود الاستراتيجية الواعية التى يقوم بها مجموعة من الناس من أجل صياغة إدراكات مشتركة عن الكون وعن أنفسهم، تقوم تلك الادراكات بإضفاء الشرعية والدافعية على الحركة الجمعية". ٢- الاتجاه الواقعى: الذى يرى العالم كمجموعة من الموضوعات (Objects) لها خصائص ذاتية وقوى سببية، يعرف الخطابات بأنها عدة موضوعات لها خصائصها وقواها ومن ثم تصير مهمة تحليل الخطاب هى التركيز على اللغة باعتبارها نظاماً خاصاً متميزاً، وكذلك دراسة القوة التى تمارسها اللغة فضلاً عن علاقة اللغة من جهة التأثير والتأثر بغيرها من الموضوعات الاجتماعية (Social Objects) كالدولة والعمليات الاقتصادية والتفاعلات الاجتماعية وغيرها. ٣- الاتجاه ما بعد البنيوى: الذى يمثله فوكو ودريدا، ينظر إلى الخطاب كمفهوم نظرةً أكثر شمولاً، فحيث أن ممثلى هذا الاتجاه يرون أن البنى الاجتماعية هى فى لب أمرها أنظمة للمعنى (Systems of meaning) تتسم بالتناقض وعدم الاكتمال والنسبية، فإن مهمة تحليل الخطاب كما يحددها فوكو ستصبح الكشف عن الارتباطات والعلائق بين الممارسات الخطابية من جهة وذلك المجال الأوسع المتكون من مجموعات الممارسات غير الخطابية (٣-٤).

ويؤكد هوارث أن نظرية تحليل الخطاب – إذا جاز استخدام هذا التعبير – قد تكونت تحت تأثير الانتقادات الموجهة لثلاثة تيارات أو تقاليد فكرية، ألا وهى البنيوية والتأويلية والماركسية. فمع التوسع فى استخدام النموذج البنيوى فى التحليل – يرى هذا النموذج أن المعنى نتاج لمجموعة من العلاقات بين العناصر المختلفة لنظام معين – لدراسة الظواهر الاجتماعية المختلفة، بدأت تظهر أوجه القصور فيما يتعلق بافتراضات النموذج البنيوى عن التكون التاريخى للبنى الاجتماعية والعلاقات بين عناصرها واستبعاد الذاتية الإنسانية من العالم الاجتماعى. ولحل هذه الاشكالات ظهرت الأعمال الفكرية لدريدا وفوكو ولاكلاو والتى أسست ما يمكن تسميته بالاتجاه الفكرى لما بعد البنيوية . من جهة ثانية، فقد اعتمد تحليل الخطاب ليس فقط على التيار ما بعد البنيوى وإنما على الفلسفات التأويلية لهايدجر وفيتجنشتين من أجل تأويل المعانى والمدركات الذاتية للحركة أو السلوك وليس بغرض الكشف عن العلاقات والارتباطات السببية، بحيث يصبح أكبر أهداف تحليل الخطاب الكشف عن القوانين ذات النشأة التاريخية التى تضع بنية أو تؤطر إنتاج المعانى فى سياق اجتماعى محدد. لا يعنى ذلك النظر إلى الممارسات الاجتماعية باعتبارها تستبطن المعانى التى يضمنها الفاعلون إياها وتنتظر من يقوم بالتأويل حتى يستنطقها، فتحت تأثير ما بعد البنيوية يرى منظرو الخطاب أن المعانى التى هى نتاج تفاعلات بل وألعاب الدوال لا ينبغى أن تلتمس تأويلاتها على المستوى الظاهرى أو الباطنى وإنما من خلال تسكين الممارسات الاجتماعية المراد إنتاج تأويلات جديدة لها فى سياقات تاريخية وبنيوية واسعة وممتدة. من جهة ثالثة، تشكل الماركسية أحد أبرز المؤثرات التى أسهمت فى ظهور نظرية

الخطاب، إذ من خلال مفهوم الايديولوجية تناولت الماركسية الكلاسيكية اللغة والأفكار والمعانى والوعى، غير أنها جعلتها متغيرات تابعة للعملية الاقتصادية والسياسية كالانتاج الإقتصادى والصراع الطبقى. وقد كان على أجيال تالية من الماركسيين كجرامشى وألثوسير أن يطوروا اقترابات لا تتسم بالاختزال فى التعامل مع الظاهرة الأيديولوجية، وتأخذ فى الاعتبار ليس فقط الجانب الفكرى/المعرفى وإنما المادى/المؤسسى وكذلك عوامل التغير الاجتماعى والتاريخى التى تحكم الهيمنة الأيديولوجية (١٠-١٢).

يتضح مما سلف أننا أمام مفهوم له طاقات تحليلية عالية بسبب ربطه بين عناصر فى الوجود الاجتماعى صار من المعتاد فصلها وتبدو لأول وهلة لا رابط بينها، فضلاً عن تحرره من الأطر الفكرية الثابتة بسبب تفكيكه الدائم للافتراضات والمسلمات. كذلك يتضح ثراء المفهوم بسبب تعرضه لمؤثرات متباينة من اتجاهات فكرية وأيديولوجية متعددة بما يجعله – بسبب توظيفه فى سياقات علمية مختلفة – مسلحاً بالعديد من الأدوات التحليلية ليواجه مختلف جوانب الوجود الاجتماعى بإشكالاته وظواهره. غير أن مكمن قوة المفهوم – ديناميكيته الشديدة وتغيره المستمر – يمثل فى نفس الوقت كعب أخيل، إذ أصبح مفهوم الخطاب دون ذاتية مميزة له فهو يختلف فى معناه ونطاقه واستخدامه باختلاف المجال المعرفى وحتى باختلاف من يقوم باستخدامه. ومن هنا فإن توظيف أو فلنقل نقل المفهوم إلى سياق ثقافى وتاريخى مغاير، تلك العملية التى دوماً ما تسبب تجمد المفاهيم وتضمينها، سيكون لها عواقب وخيمة سواء على المفهوم ذاته الذى سيلحقه التشوه بسبب خلطه بمفاهيم الأيديولوجية والثقافة والفكر، أو على المادة موضع الدراسة حيث سيؤدى استخدام تحليل الخطاب إلى الخروج من إطار النتائج العلمية إلى الآراء الشخصية دونما ضابط منهاجى.

لذلك تظهر ضرورة وضع نموذج أو حتى أطر عامة لترشيد التعامل مع مفهوم الخطاب وتحليله.

ثانياً: النموذج المقترح للتعامل مع مفهوم الخطاب وتحليله:

يتلخص هذا النموذج فى جملة من الخطوات التى تم إجراؤها فى إطار ما يسمى باعتبارات الملاءمة أو اللياقة المنهاجية على مفهوم تحليل الخطاب عند فوكو، باعتبار الأخير قد قدم اسهاماً معتبراً من حيث استخدام تحليل الخطاب لدراسة النشأة التاريخية للعديد من المؤسسات الاجتماعية الأوروبية التى لا يعد وجودها فى هذا العصر موضع تساؤل على الاطلاق .

١- أركيولوجية الاركيولوجية: تسعى هذه الخطوة إلى التنقيب عن الأصول الفكرية أو النظرية لمفهوم الخطاب الفوكولى، تلك الأصول المطمورة تحت العناصر المختلفة لبنية المفهوم فضلاً عن المحاولات المتعاقبة لتعديله وتغييره وإعادة تعريفه عقب كل محاولة لتطبيقه من قبل فوكو فى

المجالات المختلفة (تاريخ الجنون، تاريخ العلوم الانسانية، تاريخ العيادة، تاريخ السجن، تاريخ الممارسة الجنسية). ولعل المقولة الختامية فى "أركيولوجية المعرفة" تنير الطريق أمام عملية البحث والتنقيب عن الأصول الفكرية المطمورة. "إن الخطاب ليس الحياة ، وزمانه ليس زمانك ... ربما تكون قد قتلت الإله تحت وطأة كل ما قلته، ولكن لا تتصور أنه يمكنك، بكل هذا الذى تقوله، أن تصنع إنساناً يعيش أطول من ذلك الإله" (فوكو ١٩٧٢ : ٢١١).

فى قاع مفهوم الخطاب الفوكولى يتردد تضخيم لصيحة التعجب التى أطلقها نيتشه على لسان زرادشت أن الرجل العجوز لم يسمع بعد أن "الإله قد مات". إذ يؤكد فوكو أن وفاة الإله تعنى نهاية ذلك الكيان اللاتاريخى اللانهائى الذى يضع الحدود أو القيود على الوجود الإنسانى. ويفتح مبدأ "وفاة الإله" مجالاً جديداً للخبرة الإنسانية حيث تُرفع الحدود التى تؤطر الوجود الإنسانى، وحيث يمكن ضمان أنه لن يقوم كيان آخر، كى يعلن عن وجود آخر خارج الوجود الإنسانى، من رماد الإله الميت. ولا تعنى وفاة الإله الردة إلى الصورة الوضعية للعالم ذى الحدود الثابتة والقوانين الأزلية التى تُكتشف بالتجربة عن طرق الحواس، وإنما التحول إلى صورة للعالم الذى يتكشف من خلال معايشة وتذوق حدوده التى تُرسم وتُمحى ويُعاد رسمها عن طريق عملية اختراقها وتجاوزها (فوكو ١٩٧٧ :٣٢). لقد دفع فوكو إذن مبدأ وفاة الإله عند نيتشه إلى أقصى نهايته المنطقية فى محاولة لتطهير الفضاء المعرفى من كافة لطخ الوجود العلوى أو المتجاوز، فأعلن مبدأه الخاص بوفاة الإنسان والذى يعنى إزالة ذلك الكيان اللاتاريخى الآخر الذى خلق كموضوع للمعرفة فى العلوم الإنسانية والتى فشلت فى تحقيق وعودها بالكشف عن حقيقة الجوهر الإنسانى، بل قامت بعملية اختلاق متواصلة للذاتية الإنسانية التى لاتثبت على حال (فوكو ١٩٩١ : ٤-١٢٣). لم تكن نقطة التلاقى بين مبدأى وفاة الإله لنيتشه ووفاة الإنسان لفوكو غير فكرة الذات الخالقة المحركة والتى لم يكن الإله والإنسان سوى الوجهين التاريخيين لها.

إذن فقد كانت فكرة الذات الخالقة بأشكالها المختلفة هى التى حجبت الضوء عن حقيقة الخطاب فى الفكر الفلسفى، حيث أُسندت لتلك الذات وظيفة إضفاء الحياة على قوالب اللغة الخاوية من خلال ملئها بالدوافع والغايات والنوايا. لذا فقد آلى تحليل الخطاب على نفسه الإطاحة بكافة الرؤوس التى تقوم بتجسيد فكرة الذات سواء تقنعت باسم الإله أو الإنسان أو التاريخ أو الملك أو الشرعية .

٢- تفكيك التفكيك : تمثل تلك الخطوة نوعاً من تصفية الحسابات القديمة مع مفهوم الخطاب الفوكولى من أجل فتح آفاق أكثر رحابة أمام التحليل. ففى مقاله (نظام الخطاب)، يقدم لنا فوكو حزمة من التقنيات الأنيقة المتراصة لتحليل الخطاب، بل ويقرر لنا بيقين الخبرة والتجربة عدداً من

"المتطلبات المنهاجية"[1] التى يتحتم أن تضبط أى تحليل للخطاب. ولعله يمكن أن ندعى الاستفادة من مفهوم الخطاب عند فوكو فى تحليل الممارسات الخطابية للسياق العربى – الاسلامى، إذا تم تفكيك تلك الحزمة الجاهزة وتفحص مكوناتها وإعادة تشكيل تلك المكونات قبل وضعها سوياً لتشكل كلاً جديداً.

بداية يجدر إطلاق حزمة تقنيات الخطاب الفوكولى من أسر المتطلبات المنهاجية الصارمة التى تشبعت باليقين المنهاجى لفوكو الشيخ، وذلك عن طريق إعادتها مرة أخرى لحالتها الأصلية من الحماسة وعدم اليقين المنهاجيين اللذين طبعا فوكو الشاب عند شروعه فى المغامرة الأركولوجية. فلقد أظلت تحليل الخطاب الفوكولى فى بواكيره حالة من التجريب/الاختبار، حيث أشار فوكو الشاب إلى أن مشروعه الأركيولوجى "لا يحسن أن يُنظر إليه باعتباره محدداً تماماً أو صالحاً بإطلاق؛ لأنه ليس أكثر من محاولة تقريبية ستسمح بظهور بعض العلاقات التى قد تطمس بدورها الملامح المحددة لذلك المخطط الابتدائى" (فوكو ١٩٧٢ : ٣٠). ليس هذا فحسب، بل عرض فوكو لبنية مفهومه باعتبارها تتشكل من "أربع محاولات، أربعة إخفاقات – أو أربعة فروض متتالية يجب أن توضع الآن موضع الاختبار" (٣٧). ولقد تبدت تلك الحماسة المنهاجية، المحفزة لتحليل الخطاب الفوكولى، فى واحدة من أخطر العمليات أو الإجراءات، ألا وهى "التطهير المفاهيمى"، إذ تمت التضحية بكم هائل من المفاهيم والثيمات التى تبث مبدأ الاستمرارية والاتساق فى جنبات الخطاب ومكوناته. وتبدو روعة تلك العملية وخطورتها فى آن واحد، حيث قامت بتسييل الهياكل والفئات الصلبة التى أُخذ بها فى السابق دون تمحيص أو اختبار؛ كما أنها حررت حيزاً واسعاً من المقولات والمكونات الخطابية التى سيتم التعامل معها باعتبارها المادة الخام لتحليل الخطاب (٧-٢٦). غير أن فوكو لم يكن غافلاً عن خطورة تلك العملية ولم يتوهم أنه يقدم وصفة سحرية ستطيح بكافة إشكاليات "تاريخ المعرفة" بضربة واحدة، بل كان واعياً أن وضع تحليل الخطاب موضع التطبيق واختبار فروضه يتضمن قدراً لا يستهان به من المخاطرة. فليس هناك دليل على أن "التجربة الأولية" التى تستعين "بمجموعة من المقولات الفضفاضة" لن تفشل فى النهاية ولا أن فوكو ذاته "سيتمكن من اكتشاف الأسس التى تعين وحدات الخطاب وتحدد حدوده". ولم يكن فوكو حتى متأكداً من أنه فى نهاية مغامرته الأركيولوجية سيستطيع بصورة حقيقة الفكاك من أسر المفاهيم والمدركات التى قامت الحماسة المنهاجية بتطهير حيز التحليل منها. وأخطر

---

[1] يدخل فى تلك المتطلبات ، أولاً : مبدأ العكس والذى يقضى بعدم إحالة الخطابات إلى نقطة أصل أو بداية كالمؤلف أو النظام أو إرادة الحقيقة . ثانياً : مبدأ عدم الاستمرارية والذى يدرك الخطابات باعتبارها ممارسات لا استمرارية فيها متقاطعة مع بعضها بحيث تتجاور فى بعض الأحيان وتتصارع أو تستبعد بعضها البعض فى أحيان أخرى . ثالثاً : مبدأ الظاهرية والذى ينفى وجود نواة خفية تتبدى فى الخطاب وتكويناته ويسعى المرء فى التحليل إلى التنقيب عنها، حيث أن انتظام الخطاب يكمن فى الشروط الخارجية أو الحدود التى تجعله ممكناً فى الأساس (فوكو ١٩٨٤: ٧-١٢٦).

من ذلك، الفشل فى تقديم أى أساس "بحيث يفقد المرء كافة الحقائق اليقينية والأدوات المعتادة ويخطو نحو أرض مجهولة بلا معالم ويصل إلى خاتمة غير متوقعة". بعبارة أخرى، "إننا نخاطر بفقدان كافة العلامات والأدلة فلا يبقى للتحليل سوى فضاء خالٍ محايد يفتقر الى المعنى أو الغاية" (٩-٣٨).

وستتيح حالة التجريب المتجذرة فى الحماسة وعدم اليقين المنهاجيين تنمية إمكانات تحليل الخطاب وتجنب مخاطره من أجل فتح مفهوم فوكو للخطاب لمرونة التطبيق ومراعاة الحساسيات الثقافية وإعتبارات ملاءمة الحالة الدراسية .

٣- إعادة التوازن: تمثل تلك الخطوة محاولة للتغلب على أحد أوجه القصور فى تحليل الخطاب الفوكولى من خلال علاج الاختلال فى العلاقة بين الثابت والمتغير، تلك الإشكالية الفلسفية التى تعود جذورها لليونان القديمة، والتى يتضح أن فوكو قد حاول أن يقوم بحلها من خلال الإطاحة بالثابت لحساب المتغير. فعدم الاستمرار أو التغير لا يمثل فقط أحد المبادئ الحاكمة لمفهوم الخطاب لديه، بل شكّل على مستوى أكثر عمقاً الغاية المحركة لمشروعه الأركيولوجى، إذ اقتات فوكو على تلك التيارات السائدة فى تاريخ الفكر وتاريخ المعرفة وتاريخ الفلسفة ليكشف فى تحليلاته عن المزيد من الانقطاعات. وبذلك تحول الانقطاع لديه من عقبة خارجية تعيق عمل المؤرخ الذى دوماً ما يبحث عن التواصل والاستمرار ويفتش عن البدايات الجديدة، تحول الانقطاع إلى عامل إيجابى يحدد مسار التحليل وغايته. ولقد أثبتت عملية نقل بؤرة التحليل التاريخى للتركيز على الانقطاع وعدم الاستمرارية أنها مفيدة ومثمرة إلى أقصى حد، لأنها مكنت التحليل من تسليط الضوء على مساحات هائلة من الخطاب كانت مستبعدة تماماً من نطاقه باعتبارها استثناءً أو شذوذاً؛ حينما أخفق المؤرخ فى استيعاب تلك المكونات الخطابية فى رؤيته التاريخية الجامعة. أكثر من ذلك، أوضحت عملية التركيز على الانقطاع شروط وديناميات التغيير، إذ تمت إزالة الحواجز بين مجالات المعرفة المختلفة والتقريب بين التكوينات الخطابية التى كانت حبيسة فى هياكل/أبنية تلك المجالات المنفصلة .

بيد أن التركيز الكامل على الانقطاعات والانكسارات والانحناءات لن يؤدى فقط إلى عدم توازن التحليل وإختلاله، بل سيطيح بكافة الثوابت التى يمكن من خلالها قياس التغيرات والانكسارات بل والتعرف عليها فى المقام الأول.

ويمكن إعادة التوازن لذلك الاختلال بواسطة التركيز على العلاقة الجدلية بين الانقطاع والاستمرار، أى أن يؤخذ بعدا معادلة التغير فى الاعتبار من خلال تثبيت معالم راسخة، على نمط التوازن الديناميكى، حتى يتسنى للتحليل التقاط صورة للمشهد بأكمله وليس جانب الانقطاع فحسب. وعلى حد قول فوكو ذاته، "فالنقاط الثابتة لا يجب أن تُنحى على إطلاقها بل يجب أن نحدد أياً من تلك النقاط يعتبر مشروعاً فى ظل ظروف معينة ومن وجهة نظر تحليلات محددة؛ وأياً منها لا يعد مقبولاً تحت أى ظرف" (فوكو ١٩٧٢ : ٦-٢٥).

٤- إستدعاء المؤلف: لا تهدف هذه الخطوة إلى مناقضة ذلك الإجراء الذى اتخذه فوكو بصدد المؤلف من حيث استبعاده تماماً من التحليل فيما عرف بمبدأ وفاة المؤلف، بحيث يتم استحضار المؤلف كجوهر أو ذات خالقة هى مبدأ ومعاد التحليل، بقدر ما تسعى تلك الخطوة إلى استدعاء بعض مستويات مفهوم المؤلف كعامل محدد أو مساعد فى التحليل، تلك المستويات التى لا غنى للتحليل عنها بيد أنها أُخذت بجريرة المفهوم المتضخم للمؤلف ، ومن ثم استبعدت من التحليل .

فلقد استبعد فوكو شخص المؤلف من تحليل الخطاب من خلال التفكيك المنظم لوظيفة المؤلف باعتباره علامة تجارية وعلمية ترتبط بنظام للملكية نشأ فى سياق تاريخى معين (فوكو ١٩٩١ : ١٠-١٠٨). ويمكن تبرير استبعاد المؤلف من تحليل الخطاب الفوكولى لاعتبارين. أولهما: أن شخص المؤلف هو التجسيد المباشر لفكرة الذات الخالقة التى تتحكم فى الإشارات والعلامات والحروف، وتضفى الحياة على القوالب والأشكال الفارغة للغة، وترسم آفاق المعنى وحدوده التى على تاريخ البشرية أن يرنو إليها ويتخطاها. ثانيهما: أن شخص المؤلف، الذى يمثل وجوده الطاغى إظهاراً لنقطة الأصل السرمدية التى يُسعى دائماً لاستعادتها، يقمع الإنتاج المتجدد للدلالات والخطابات ويصادر عنصر المصادفة والتلقائية فى الخطاب من خلال فرضه على الخطاب من الخارج حدود ذاتية قمعية واحدة الوجود (omnipresent). على أن موقف فوكو المعادى لمفهوم المؤلف ليس صلباً أو حتى متسقاً كما يبدو لأول وهلة، فرغم تأكيده أن "المؤلف الحقيقى الذى يصرخ فى ذلك الخضم الهائل من الكلمات البالية" إنما هو مقيد "بالموقع داخل الخطاب الذى يستقبله ذلك الشخص من عصره أو يقوم بتعديله بدوره"، إلا أن فوكو كان يقوم بتعديل موقفه من المؤلف بشكل مستمر؛ "إنه أمر سخيف بالطبع أن ننفى وجود ذلك الفرد الذى يكتب ويخترع" (فوكو ١٩٨٤: ٧-١١٦). ولقد اتضح تعديل فوكو لموقفه من المؤلف بشكل لا لبس فيه، حينما اعترف بمركز أو مكانة "أولئك المؤلفين الذين يحتلون موقعاً سوف نسميه "عبر-خطابى" (Transdicursive)، مثل هوميروس وأرسطو وآباء الكنيسة الأوائل؛ أو موقع "مؤسسى الخطاب" (Founders of Discursivity) الذين لم يؤلفوا أعمالهم فحسب ولكنهم أتاحوا إمكانات لا نهائية للخطاب من خلال إرساء قواعد وإمكانات التكوين بالنسبة للنصوص الأخرى، مثل ماركس وفرويد" (فوكو ١٩٩١: ٤-١١٣). أكثر من ذلك أوضح فوكو أن هناك مستويات أخرى للمؤلف يعمى عنها التحليل بسبب حشرها جميعاً فى خانة "صاحب الجلالة المؤلف" (majestic author). فعلى حد قوله، "إن من الخطأ أن نساوى بين المؤلف والكاتب الحقيقى مثلما هو الحال عندما نساوى بينه وبين المتحدث المُتخيَّل" (١١٢). وبناءً على هذا، هناك ثلاثة مستويات للمؤلف: أولاً؛ هناك المؤلف الذى تم استبعاده من التحليل، إذ لم يكن أكثر من وظيفة تجارية وأيديولوجية، والذى تسبب وجوده الطاغى فى محو آثار التحولات والتشوهات والتعديلات والتناقضات المختلفة للخطاب. ثانياً؛ هناك الكاتب الحقيقى أو مرسل الإشارات الذى لا يشك أحد فى وجوده، إذ أنه يدير لعبة

اللغة ويحل ويربط الأكواد والرموز والدلالات. ثالثاً؛ هناك المتحدث المُتخيَّل أو ضمير المتكلم الذى يقص ويختبئ وراء الأحداث على نمط الضمير المستتر فى النحو العربى، والذى يشار لوجوده من خلال الضمائر وظروف الزمان والمكان وتصريف الأفعال.

لاشك إذن أن التخلص من شخص المؤلف على طريقة فوكو قد حرر التكوينات الخطابية من الوجود القمعى للكاتب الكبير (grand auteur) وكشف عن التناقضات والتغيرات والانقطاعات الكامنة فى بنية الخطاب والتى كان المؤلف يقمعها بمنتهى السلطوية. إلا أن التضحية بالمؤلف لا ينبغى أن تودى بالمستويات الأخرى، وعلى وجه التحديد المتحدث المُتخيَّل، الذى يؤدى اختفاء المؤلف صاحب الجلالة إلى ظهوره بكل ديناميكيته وتناقضه وعدم اتساقه، ولكن أيضاً بكل ثباته واتساقه وتكامله. بهذه الطريقة فقط، يمكن استدعاء المؤلف باعتباره أحد محددات تحليل الخطاب وأحد معايير تصنيف أو تجميع التكوينات الخطابية.

٥- إعادة هيكلة بنية مفهوم الخطاب: على خلاف الخطوات السابقة التى تناولت هذا الجانب أو ذاك من مفهوم الخطاب الفوكولى بغرض معالجة الخلل فيه حتى يتمكن الباحث من أن يمسك بزمامه، فإن هذه الخطوة تلقى نظرة أوسع وأشمل على المفهوم بإجماله بغية إصلاحه هيكلياً، حتى يتمكن الباحث من أن يطلق له العنان فى الدروب والمسالك الخاصة بمنطقة ثقافية ودينية وتاريخية لها من السمات ما يجعلها مغايرة لبيئة المفهوم الأصلية. ولكن يشترط لنجاح عملية إعادة الهيكلة تلك ألا تكون مفروضة على المفهوم من خارجه وإنما تُستنبت من داخله وتستثمر إمكاناته وقابلياته، بحيث يولد المفهوم من جديد بصورة طبيعية وتلقائية، ولا يتحول إلى مسخ شائه.

رغم أن فوكو أكد مبدأ الظاهرية الذى يجعل من تحليل الخطاب ممارسة على السطوح لا تهدف إلى الكشف عن نواة مختفية أو ذات خطابية أصلية، فإنه صرح بأن المهمة التحريرية للخطاب، والتى تتطلب جهداً دؤوباً يبذل على الحدود الخارجية لذواتنا ليصرف ويعطى شكلاً لتطلعنا نحو الحرية، تتعلق بتمرد المعارف المقهورة أى الكتل المعرفية التى تكونت تاريخياً من خلال الصراعات والنزاعات ومالها من تأثيرات انقطاعية غير أنها استبعدت بواسطة الاتجاهات العلمية الوظيفية والبنيوية باعتبارها غير ملائمة لأداء وظيفتها أو غير صالحة علمياً. ومن خلال إعادة ظهور تلك المعارف الشعبية المحلية، فإن النقد الذى يقوم به تحليل الخطاب يكون قد أدى دوره على أتم وجه (فوكو ١٩٨١: ٢-٨١). ولعله فى ضوء تلك المفارقة يمكننا أن نفرق فى بنية مفهوم الخطاب الفوكولى بين مستويين: المستوى الإبستمولوجى المتعلق بظهور المشكلات البحثية والاكتشافات العلمية والاختلافات فى الآراء، أو ما يمكن تسميته عمليات منتوجات والوعى العلمى؛ والمستوى الأركيولوجى الذى يفلت من الوعى أو الشعور الخاص بالعلماء، إلا أنه جزء من الخطاب العلمى، حيث يضم قواعد تَكَوُّن النظريات والمفاهيم والموضوعات التى تُتداول فى فضاء الخطاب. ولقد كان الهدف الرئيسى لتحليل الخطاب عند

فوكو هو استخراج المستوى الأركيولوجى من طبقات الخطاب. ورغم أن مبدأ الظاهرية المتحكم فى التحليل الفوكولى لا يسمح بفهم مصطلحات الوعى واللاوعى أو اللاشعور عند فوكو على طريقة فرويد – حيث يكون المطلوب هو تحليل اللاوعى الفكرى والمسكوت عنه من خلال الإحالة على ذاتية موجودة خارج الخطاب أو سابقة على وجوده – بل تلك المصطلحات لا تعد سوى مستويات خطابية أراد فوكو أن يفرغها من داخلها ليتمكن من محو مفهوم الإنسان أو الذات كما تمحو أمواج البحر الوجوه المرسومة على رمال الشاطئ، أقول رغم ذلك كله فإن محاولة فوكو لتحطيم شخصانية الخطاب (Depresentify the discourse) لا تستبعد أى محاولة تسعى للكشف عن أو تحرير الخبرات ما قبل الخطابية (prediscursive experiences) من طغيان النص (فوكو ١٩٧٢: ٤٧ & فوكو ١٩٦٦ : xi &٣٨٧) .

وفى هذا الموضع تماماً، يمكن أن نفتق نسيج حزمة الخطاب الفوكولى لإدخال المؤثرات الفكرية للسياق الثقافى المغاير، حيث تعد فكرة السطوح الخارجية وانعدام القيعان غريبة على الثوابت الحضارية للسياق المعنى. ولم تكن تلك الفوارق الثقافية خافية على فوكو، بل إنه تعرض لها فى حديثه عن دور العامل الدينى فى الثورة الايرانية، حيث ذكر " أن المسلمين لديهم نظام الحقيقة الخاص بهم والذى يختلف عن مقابله عندنا... إذ هو مُصمَّم على النموذج الخاص بالدين الذى لديه شكل ظاهرى ومحتوى باطنى ، فكل ما يقال تحت الشكل الظاهر للقانون يشير أيضاً إلى معنى آخر". وليس هذا من قبيل التناقض بين ما يقال وما يقصد، بل هو "مستوى إضافى للمعنى يتسم بالضرورة والقيمة الثمينة، إنه معنى أعمق لا يمكن استيعابه عن طريق الملاحظة والتحديد" (فوكو ١٩٨٨ : ٢٢٣).

بالإضافة إلى هذا، فعند الاقتراب من تلك المنطقة الخطابية التى تشير لنفسها باعتبارها إسلامية نجد أن صفة الاسلامية التى تشير لذلك الخطاب وتحدد حدوده الخارجية وتنظم عمل آلياته الداخلية لا تتعلق بإنتاج واستهلاك الخطاب من قبل مسلمين أو فى بلدان إسلامية، حيث توجد الحقوق الحصرية لتداول شفرات ثقافية معينة، بقدر ما تشير صفة الإسلامية تلك إلى علاقة خاصة بالنص القرآنى باعتباره المصدر الرئيسى للدلالات والمعانى التى تدور مع المكونات الخطابية وجوداً وعدماً. بعبارة أخرى، يعد الخطاب إسلامياً إذا ما اعترف بسلطة القرآن باعتباره النص التاسيسى للوسط الثقافى الذى يجرى فيه إنتاج واستقبال الخطاب. من اجل هذا، تطرح خصوصية الخطاب الإسلامى عدداً من التحديات الخطيرة على مفهوم الخطاب الفوكولى بحزمته الإجرائية، خاصة فيما يتعلق بكيفيه التعاطى مع النص القرآنى. فهل يدمج النص التأسيسى فى فضاء الخطاب أم يعزل عن آلياته الداخلية؟ وفى كلا الحالتين يثور التساؤل حول كنه العلاقة بين النص التاسيسى والممارسات الخطابية المنتجة فى الوسط الثقافى المتولد عن النص التأسيسى. وليست الإجابة على هذا السؤال نظرية محضة بل لها تداعياتها

العقيدية والسياسية والاجتماعية التى قد تكون كارثية بالنسبة لمحلل الخطاب أو لجمهور الخطاب أو للخطاب ذاته.

ولعل الإجابة على تلك التحديات يمكن أن تُرتجى فى تلك المقولة ذات الأهداف التعليمية التى يفضى بها إروين روزنتال لتلاميذه فى كتابه القيم "مقدمة فى الفكر السياسي للإسلام فى القرون الوسطى"، تلك المقولة التى سنطيل فى الاقتباس منها. "إن علينا أن ندرك أنه بغض النظر عما أنتجه البحث المعاصر عن نشأة وتطور الشرع الإسلامى بأصله الثلاثى من قرآن وسنة وحديث، فإنه فى وعى المسلم سيظل شريعة مقدسة وملزمة لكل أعضاء الجماعة المسلمة. دون ذلك فإننا لا نستطيع حتى أن نأمل فى فهم ما يدور فى عقول الكتاب المسلمين الذين نقوم بدراسة فكرهم السياسي" (روزنتال ١٩٦٢: ٧). وتفسير مقولة روزنتال هى أن كون القرآن هو كلمة الله الموحاة التى تجسد الحقيقة المطلقة إنما هو أمر إيمانى، غير أنه بالنسبة للمسلمين أمر يقينى أن القرآن هو الحقيقة المطلقة الموحاة من الله. ويستفاد من مقولة روزنتال تلك، أنه إذا كان حقل الفكر السياسى لا يطمح فى فهم المفكرين السياسيين فى مجال بحثه دون أن يأخذ فى اعتباره بشكل كامل هذا الموقف المبدئى، فإن تحليل الخطاب بالمثل لا يأمل فى فهم ديناميات وقواعد تَكَوُّن وفاعلية الخطاب الاسلامى دون أن يستمسك بهذا الرأى أيضاً .

إن الخصوصية الثقافية لنظام الحقيقة فى الإسلام والمكانة المتميزة للنص القرآنى فى الوسط الثقافى المنتج للخطاب سينعكسان بالضرورة على بنية مفهوم الخطاب وكيفية ممارسة تحليله، وذلك من خلال السماح بأن تكون هناك علاقة بين الخطاب والنص التأسيسى بحيث تحتل تلك العلاقة مكاناً فى بنية المفهوم بإضافة مستوى ثالث تحت-أركيولوجى (sub-archaeological) يعمل كنقطة البداية ومحل الوصول بالنسبة للممارسة الخطابية. ويمثل هذا المستوى الاضافى، الذى يمكن أن ينظر إليه مكانياً باعتباره تحتياً أو فوقياً كما يمكن أن يُوصَّف زمانياً باعتباره قبلياً أو بعدياً، نقطة مرجعية لا تاريخية تستثير الممارسة الخطابية الإسلامية التى تحتمى بتلك النقطة دوماً عندما تبحث عن معان جديدة للوجود وتسعى لفتح آفاق تاريخية جديدة من خلال قراءة وإعادة قراءة والمزيد من قراءة النص التأسيسى؛ ومن هنا المعنى الحرفى لكلمة "قرآن" أى ما يقرأ بصورة مستمرة .

ولا تستطيع أيه محاولة لتطبيق تحليل الخطاب أن تفسر الممارسة الخطابية الاسلامية حينما تفصم العلاقة بين الممارسة الخطابية والنص التأسيسى: وذلك من خلال خلع النص من مكانته المرجعية وحشره فى أحد المستويات الخطابية (الإبستمولوجية والأركولوجية) أو من خلال التعتيم على أنماط التفاعل الديناميكى بين هذين المستويين والمستوى تحت-الأركيولوجى.

المراجع

- Asad, Muhammad 1967, The Principles of state and government in Islam, Los Angeles: University of California Press.
- Foucault, Michel 1970, The order of things: an archaeology of human sciences, London: Tavistock Publications, 1st ed.
- _____ 1972, The archaeology of knowledge, London, Tavistock publications, 1st. ed.
- _____ 1977, Language, counter–memory, practice: selected essays and interviews, New York: Cornell University Press, 1st. ed.
- _____ 1981, Power / Knowledge, New York: Panethan Books.
- _____ 1984, The order of discourse, in Shapiro, Michael (ed.) Language and Politics, Oxford: Basil Blackwell Publisher L td., 1st ed.
- _____ 1988, Michel Foucault: politics, philosophy, culture, New York: Rontledge, 1st ed.
- _____1991, The Foucault reader, London: Penguin, 3rd. ed.
- Howarth, David 2000, Discourse, Buckingham: Open University Press, 1st. ed.
- Hugli, Antan & Lubcke, Poul 2000, Philosophie Lexikan: Personen und Begriffe der abendländlischen Philosophie von der Antike bis zum Gegenwart, Hamburg: Rowohlt Taschenbuch.
- Rosenthal, Erwin 1962, Political thought in medieval Islam: introductory outline, Cambridge: Cambridge University Press, 2nd. ed.